رسائل تلّغرافيّة
(١٢)

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

بَلَّغَهُ

ابن الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، أما بعد:

فلقد أنزل اللَّه ﷻ القرآن العظيم ليعمل به الناس، فيأتمروا بأوامره، ويجتنبوا نواهيه، ويعتبروا بما فيه من القصص، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، ففي هذا القرآن الهدىٰ والرحمة والتفكّر والتدبّر والإفهام والتعليم والتفقّه والإدراك، حتىٰ يستقيم للناس دينهم ودنياهم، وتستقر أمورهم وشئونهم، وتكتمل منظومة جلب المصالح ودفع المفاسد، وهذا الجلب والدفع هو المقصِد الأصلي لهذه الشريعة الحنيفية السمحة، ولا يكون ذلك إلا بالتفكّر والتدبّر في كتاب اللَّه تعالىٰ حيث قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

قال ابن فارس في «مقاييس اللغة» (٤/ ٤٤٦):

«"فكر": الفاء والكاف والراء: تردد القلب في الشيء، يقال: تفكّر إذا ردَّد قلبه معتبرًا، ورجل فِكِّير: كثيرُ التفكير». اهـ

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٤٩):

«قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا

﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠]، قيل: وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي: كذلك يبين اللَّه لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا وزوالها وفنائها فتزهدون فيها، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبون فيها». اهـ

وقال ابن كثير في «تفسر القرآن العظيم» (٤/ ٣٦٢):

«قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]؛ أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين». اهـ

وقال القرطبي (١٠/ ٧٩):

«قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتعظون». اهـ

وعليه، فالواجب المعين علىٰ المسلم المكلّف: التفكّر في آيات القرآن للتدبُّر والاتعاظ والإدراك والفهم والتفقّه والتصوّر، ثم العمل بالأوامر والنواهي التي أمر اللَّه بها ورسوله، وبهذا يهتدي الناس إلىٰ الصراط المستقيم الذي هو العلّة والمراد والغاية من الخلق.

● فإذا كان ذلك كذلك، ففرض المسلم العاقل التفكّر في كل آية من آي القرآن والنظر فيها وفهمها ومعرفة الفقه المراد منها، حتىٰ يكتمل للفطن إدراكُ ووعيُ وتصورُ كلِّ القرآن، وذلك غاية العبودية الحقّة، إذا ترتّب علىٰ ذلك العمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

ثم أما بعد:

فقد قال العليم الحكيم: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٤٠):

«قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: إذا أراد شيئًا فلا يُرَدُّ ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه.

قال سعيد بن جبير: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾؛ أي: فعّال لما يشاء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يقول: لا يدرون حكمته في خلقه وتلطّفه لما يريد». اهـ

وقال السعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٩٥):

«أي: أمره تعالىٰ نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام اللَّه القدرية، وهم أعجز وأضعف من ذلك». اهـ

وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١١٣):

«قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ الهاء راجعة إلىٰ اللَّه تعالىٰ؛ أي: لا يغلب اللَّهَ شيءٌ، بل هو الغالب علىٰ أمره نفسه فيما يريده أن يقول له: كن، فيكون.

وقيل: ترجع إلىٰ يوسف؛ أي: اللَّه غالب علىٰ أمر يوسف يدبّره ويحوطه ولا يكله إلىٰ غيره، حتىٰ لا يصل إليه كيدُ كائد، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن اللَّه غالب علىٰ أمره. وقال الحكماء في هذه الآية: حيث أمره يعقوبُ ألا يقص رؤياه علىٰ إخوته فغلب أمر اللَّه حتىٰ قصّ، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمر اللَّه حتىٰ صار ملكًا وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر اللَّه حتىٰ ضاق عليهم قلب أبيهم، وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، ثم تدبّروا أن يكونوا من بعده قومًا صالحين؛ أي: تائبين، فغلب أمر اللَّه حتىٰ نسوا الذنب وأصرّوا عليه حتىٰ أقرّوا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فغلب أمر اللَّه فلم ينخدع، وقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًا﴾ [يوسف: ١٨]، ثم احتالوا في أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر اللَّه فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دبّرت امرأة العزيز أنها إن ابتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمر اللَّه حتىٰ قال العزيز: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾

إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، ثم دبّر يوسفُ أن يتخلص من السجن، بذكر الساقي، فغلب أمر اللَّه فنسي الساقي، ولبث يوسف في السجن بضعَ سنين». اهـ

قلت: قال اللَّه تعالىٰ الغالب علىٰ أمره، القاهر فوق عباده: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

● واللَّه هو الفعّال لما يريد: كما أنه ﷻ الغالب علىٰ أمره فهو سبحانه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ١٤٨):

«قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ يقول: هو غفَّار لذنوب من شاء من عباده إذا تاب وأناب منها، معاقب من أصرّ عليها وأقام، لا يمنعه مانع من فعلٍ أراد أنْ يفعله، ولا يحول بينه وبين ذلك حائل؛ لأن له ملك السموات والأرض وهو العزيز الحكيم». اهـ

وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٢٣٤):

«أي: مهما أراد فَعَله، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عمّا يفعل؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصدّيق أنه قيل له -وهو في مرض الموت-: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إنّي فعال لما أريد». اهـ

وقال السعدي في خاتمة تفسيره (ص٩٤٨):

«الفعّال لما يريد: وهذا من كمال قوّته ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريده يفعله بلا مانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين، علىٰ أيّ أمر يكون، بل إذا أراد شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ومع أنه فعال لما يريد، فإرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله». اهـ

- **ومن يُدَبِّر الأمر؟**

ثم اضمم إلىٰ هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، المدبّر اللَّه ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

- **واللَّه هو القاهر فوق عباده:**

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧-١٨].

قال الحافظ ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٥٩-١٦٠):

«يقول تعالىٰ مخبرًا أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما شاء، لا معقب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ الآية [فاطر: ٢].

وفي «الصحيحين» [البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣)] أن رسول اللَّه ﷺ كان يقول: «**اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾؛ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلّت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءَلَتْ بين يديه وتحت حكمه وقهره، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: في جميع ما يفعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا لمن يستحق، ولا يمنع إلّا من يستحق». اهـ

- **ومضات نورانية، ومنارات قرآنية تدلّ على الطريق الصحيح:**

قلت: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]،

ومثلها قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، فهذه آيات ثلاث، هي أصول في تصحيح المعتقد في حسن الظن باللَّه، فهذه معانٍ جليلة وصفات للَّه عُلَىٰ، قد توجب علىٰ الناس أجمعين التعبّد إلىٰ اللَّه بها بحسن تصوّرها، ووعيها، وإدراكها، وفهمها، وتفقّهها، وترسيخها في القلوب والنفوس والأرواح والصدور والضمائر، والعمل بها واليقين بمرادها ومقاصدها، وتطبيقها في الواقع العملي لتستقيم لنا أمورنا وشئوننا وأقوالنا وأفعالنا وحركاتنا وسكناتنا، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

قال ابن جرير في «تفسيره» (١٦/ ٢٣٦-٢٣٧):

«يقول تعالىٰ ذكره: استأثرت وجوه الخلق واستسلمت للحي الذي لا يموت، القيوم علىٰ خلقه بتدبيره إيّاهم وتصريفهم لما شاء، وأصل العنو: الذل، يقال منه: عنا وجهه لربه: خضع وذلّ عن تسليم وطاعة». اهـ

ثم رَوَىٰ ذلك عن ابن عباس، وقتادة، وخشعت عن مجاهد، وغيره.

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٢٠٢):

«قال ابن عباس وغير واحد: خضعت وذلّت واستسلمت الخلائق لجبَّارها الحي الذي لا يموت، القيّوم: الذي لا ينام، وهو قيّم كل شيء، يدبّره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قِوام له إلّا به». اهـ

- **ألا إنَّ نصر اللَّه قريب:**

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٧٣-٣٧٤):

«يقول تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ وهي: الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب. قال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومُرّة الهَمْدانيّ، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل بن حيّان: ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾: الفقر.

وقال ابن عباس: ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ السقم.

﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ خوفًا من الأعداء زلزالًا شديدًا، وامتحنوا امتحانًا عظيمًا، كما جاء في الحديث الصحيح عن خبّاب بن الأَرَتِّ قال: قلنا: يا رسول اللَّه ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**إنّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار علىٰ مفرق رأسه فيخلص إلىٰ قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويُمْشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه**»، ثم قال: «**واللَّه ليتمَّنَّ اللَّه هذا الأمر حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت، لا يخاف إلا اللَّه والذئب علىٰ غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون**» [رواه البخاري (٣٨٥)].

وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة ﷺ، في يوم الأحزاب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١٢].

ولما سأل هرقل أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: فكيف كان الحرب بينكم؟ قال: سجالًا يدال علينا ونُدَال عليه. قال: كذلك الرسل تُبْتلىٰ،

ثم تكون لها العاقبة». [رواه البخاري (٧)].

وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾؛ أي: سُنَّتُهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨]، وقوله: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يستفتحون علىٰ أعدائهم، ويَدْعون بقُرْب الفرج والمخرج، عند ضيق الحال والشدّة، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، وكما تكون الشدّة ينزل من النصر مثلها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

وفي حديث أبي رَزين: «**عجب ربك من قنوط عباده وقُرْب غيثه، فينظر إليهم قَنِطين، فيظل يضحك، يعلم أن فرجهم قريب**» الحديث. اهـ

والحديث رواه ابن ماجه في «سننه» (١٨١)، وأحمد في «المسند» (١٦١٤٥)، قال البوصيري في «الزوائد» (١/ ١٦١): «هذا إسناد فيه مقال، وكيع ذكره ابن حبان في «الثقات»، وذكره الذهبي في «الميزان»، وباقي الإسناد احتج به مسلم». اهـ والحديث ذكره ابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٩٣): وقال: «حديث حسن».

قلت: فإذا ضممت هذه الآية وشرحها وتفسيرها، ثم ضممتها إلىٰ الآيات الثلاث وشرحهنّ آنفًا وهي أصول تصحيح المعتقد في حسن الظن باللَّه، واليقين به سبحانه، استقام عندك التصوّر الشرعي المعتبر، الذي يسْتقيم به دين المؤمن الحق.

فإنه ليس ببعيد علينا ما يحدث للأمة من قرون عدّة، من الفتن والبلايا والمحن والمصائب والويلات، هذا مع هذه الأصول الثلاثة:

١- ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ١٦].

٢- ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧-١٨].

٣- ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

فإذا رسخت هذه الأصول الثلاثة بفهمها الشرعي وفقهها القرآني، وبيانها النبوي مثل حديث خبَّاب بن الأرتّ، علمت فقه المسألة: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]، وليطمئن قلبك بذكر اللَّه، وهو الذي فصلته مُبيَّنًا في مقالة سابقة، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، والذكر هو كل الدين عقيدة وقولًا وعملًا ونية واتباع السنّة، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، والوقوف عند حدود وعدم تعدّيها، والاجتهاد في إصلاح القلب والنفس والصدر والضمير والروح، ثم فلْيُصِبْكَ بعد ذلك ما أصابك، إذا استقام دينك علىٰ الصراط المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۗ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [هود: ٩٢]، فربّ العزة -جل وعلا- محيط بالخلائق علمًا، ويعلم ما يسرون وما يعلنون، والخبيرُ بعباده يعلم المفسد من المصلح ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾؟ [الملك: ١٤]، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فاستعن باللَّه ولا تعجزنّ، وليس ثمّ إلا صلاح ما بينك وبين اللَّه، ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، والحمد للَّه أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بلَّغه

الفقير إلى اللَّه

ابن الكيَّال